

## المحاضرة الحادية عشر: التحليل السياقي للنصوص

### الهدف الخاص:

- أن يضبط الطالب الآليات الإجرائية للتحليل السياقي للنصوص

### الهدف الإجرائي:

- أن يستخرج الدلالة السياقية من النصوص.

## تمهيد:

تعدّ "النّظرية السّياقيّة" (contextual theory) ، أكثر التصاقا بعلم الدّلالة وأدق منهجية وضبطا للأسس العلميّة الموضوعيّة التي تساعد على تحديد المعنى الدلالي (Semantic meaning). هذه النّظرية التي تبلورت على يد اللّغوي البريطاني "فيرث" firth، تعيد الاعتبار للشّق الثّاني الذي أهمله البنيويّون في الدّراسات اللّغويّة؛ أي الجانب الاجتماعي، وهنا يلزمنا الحذر في تحديد مفهوم المعنى السياقي/ الدّلالي الذي لا يخرج عن نطاق الوصفيّة.

### 1. التحليل السياقي للبنية الدلالية:

إذا كان كلّ فرع من فروع اللغة، يشكّل نظاما جزئيا داخل النظام الكلي، فإنّ المعنى (meaning) يتجلى في كل الأنظمة، هذا ما يجعل السياق يأخذ قيمة مركزية وأهمية بالغة في التحليل الدلالي، فلا يُمكن التوصل إلى الدلالة الصوتية بالنظر إلى الأصوات معزولة عن بعضها، بل بوضعها في ترتيب معيّن، وكلّما أبدلنا صوتا مكان صوت نحصل على بنية صوتية جديدة ذات دلالة مختلفة<sup>1</sup>، والحال ذاتها مع الدلالة الصرفية، تُفهم أيضا ضمن تركيب لغوي وسياق خاص لأنّ الكلمة لا تكفي بحمل المعنى المعجبي في جميع التراكيب، بل كلّ تغير في السياق وفي بنية الكلمة وصيغتها يُحدث تغيرا دلاليا.

تتحدّد البنية الدلالية للنّص من الترابط بين مستوياته اللغوية؛ أي أنّها بنية ناتجة من تضافر ما سبقها من البنى (الصوتية، الصرفية، التركيبية)، "ويتّضح هذا في مقامنا بما تنبني عليه اللّغة، فهي في ركنها الأوّل أصوات، والأصوات علامات دالّة يطلق عليها مصطلح الصّواتم (الفونيمات) وهي ترابط منسجمة في تكامل بحيث تشكّل بنية هي (البنية المعجمية) والجمل إذ تفضي إلى (البنية التركيبية) ومن كل ذلك تنبع (البنية الدلالية)"<sup>2</sup>. لذلك يغوص السياق في البحث عن البنية الدلالية العميقة، الناتجة عن ربط البنية اللغوية الداخلية بالمراجع الخارجية المحيطة بها، "والبحث عن بنية النّص هو البحث عن العناصر التي يتركّب منها، وعن المقياس الذي ركّبت هذه العناصر على أساسه"<sup>3</sup>. انطلاقاً من أصغر وحدة دلالية إلى ما هو خارج اللّغة، كلّ يدور حول الدّلالة ويخدمها. فأهمّ الموضوعات التي يعنى بها التحليل السياقي هو المعنى والترابط

<sup>1</sup> محمود عكاشة، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دراسة في الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2005، ص32.

<sup>2</sup> عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، ص33.

<sup>3</sup> خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، ط2، 2000، ص16.

المحقق بين عناصر التّركيب، والعلاقات القواعديّة فيما بينها، والبنية الدلّالية التي تربطها، لأجل تحديد المعنى العام، ضمن السّياق اللغوي ووالغير لغوي الذي يحيط به.

إذا سلمنا بمنهج الدراسة الدلالية التطوّري الوصفي، فإنّ تتبّع التغيّر الدلالي (Semantic change) الذي يُصيب الكلمات الخاصة بلغة معيّنة من فترة إلى أخرى، وما يُسبّبه تطوّر دلالي (Semantic evolution) يُسهم في تبين نظام لغوي جديد، يُعدّ من المبادئ الأساسية التي ينبغي على المحلّل السياقي أن يأخذها بعين الاعتبار، لأنّ محاولة الوعي بالبنية الدلالية (structure semantic) يبدأ من فهم الأسباب التي أبدلت في دلالات الكلمات، سواء لحاجة المجتمع إلى مجالات معرفية جديدة، أو تغيّر رؤيته وميولاته الفكرية بشكل عام، فعند المقارنة بين نظامين ينتميان إلى نفس اللغة، سنجد أنّ بعض الكلمات قد حدثت في دلالتها تغيّر، نظرا لطبيعة اللغة الديناميكية التي تحي وتميت في كلّ مرة، توسّع الدلالة أو تضيّقها، تُبدّل مواقعها بين المركزية والهامشية، تحطّ وتُعلي لأسباب عديدة.<sup>4</sup>

مثلا فعل "عبد القاهر الجرجاني" فقد استشهد بالأشعار الجاهلية من أجل إثبات إعجاز القرآن الكريم، وما أضافه لفصاحة العرب وبيانهم من دلالات وسّعت المعجم العربي؛ "وإذا كان ذلك كذلك، فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النّظم، موجودة على حقائقها وعلى الصّحة وكما ينبغي من منشور كلام العرب ومنظومة، ورأيانهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكَمَلوا بمعرفتها... فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبة...؟ أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّب لدائه ونزيل الفساد عن رائه؟ فإنّ كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه"<sup>5</sup>. يقول الباحث "عبد الغني بارة" بهذا الشأن: "لعلّ هذا ما جعل عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) يصل إلى أنّ حقيقة الخطاب القرآني، أي وجوه الإعجاز فيه، لا يُمكن تحديدها إلّا من خلال دراسة الشّعْر، باعتباره مدخلا ضرورياً، والبحث عن القوانين العامّة التي تشكّله، وكذا كفيّة إنتاجه للدلالة"<sup>6</sup>. هذا يعني أنّ السياق الخارجي مهم جدا في عملية التحليل السياقي .

كما انتهج الباحث "عودة خليل أبو عودة" نفس المبادئ أثناء تتبّع التطوّر الدلالي بين الشّعْر الجاهلي ولغة القرآن، في دراسته الدلالية المقارنة التي انتهجها لذلك، مبينا أنّ بعض الكلمات قد ثبتت دلالتها في القرآن كما كانت عليه في الشّعْر الجاهلي كالجَن والملائكة، وهناك كلمات غيرّها القرآن منها ما كانت عامة الدلالة قام بتخصيصها كالصّلاة والحجّ والصّيّام، ومنها ما كانت خاصّة في دلالتها فأعطاها دلالة عامّة مثل:

<sup>4</sup> ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 243، 250.

<sup>5</sup> عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط3، 1993، ص 8، 9 (المقدمة).

<sup>6</sup> عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2008، ص 419.

الكفر، الفسق، النفاق وهناك كلمات تطوّرت عن طريق المجاز إلى الحقيقة مثل: التّسبيح، المغفرة، كما أعطى المفاهيم الجاهليّة دلالات جديدة لم تكن معروفة لها مثل: إبليس، الغسلين، الحدّ. كما خلق كلمات جديدة كالجزاء، والعقاب<sup>7</sup>.

هذا من شأنه يفتح لنا مجال الحديث عن المعنى المعجمي والمعنى السياقي، حيث نجد أنّ الكلمات في المعاجم التقليدية تكون مرتبة تحت بعضها البعض من دون وجود علاقات دلالية فيما بينها، فقط تحمل معنى عرفيا وفي الغالب يكون متعدّدا، بينما في الوقت الذي توضع فيه الكلمة داخل سياقها، تبدأ عملية حذف المعاني الهامشية من أجل تخصيص المعنى الواحد لها. وفي هذا المقام يفرّق الباحث "علي زوين" بين المصطلحين بقوله: "للسّياق أهميّة كبيرة في تحديد المعنى وتوجيهه، ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على أكثر من معنى واحد، فالذي يحدّد هذه المعاني ويفصلها هو السّياق في مورد النّص، لذلك نلاحظ أنّ اللّغويين يصفون المعنى المعجمي للكلمة بأنّه متعدّد ويحتل أكثر من معنى واحد، في حين يصفون المعنى السّياقي لها بأنّه واحد لا يحتل غير معنى واحد"<sup>8</sup>، وهنا توضيح بارز لأهمية السّياق في قدرته على تحديد المعنى؛ فمهما تعدّدت معاني الكلمة يفرض السّياق معنى واحدا ووظيفة واحدة تؤدّيها.

- المعنى المعجمي (Lexical meaning): البحث عن معنى الكلمة مفردة بعيدة عن السّياق. في هذه الحالة تحمل الكلمة معاني متعدّدة.

- المعنى السياقي (Contextual meaning): توضع الكلمة في سياق لغوي اجتماعي قصد تحديد الدلالة، من خلال ربطها مع قريناتها من الكلمات الأخرى من جهة، وإنزالها إلى البيئة التي أنتجتها من جهة ثانية، من خلاله نصل إلى المعنى الدلالي حينما نبحث في العلاقات الدلالية للكلمة.

تجدر الإشارة، إلى أنّ المعنى السياقي لا يتعلّق بالعالم الخارجي فقط، بل يبدأ بعلاقة الكلمات ببعض ضمن التركيب اللغوي، وهذا بلا شكّ يعيدنا إلى مفهوم القيمة (value) التي تحدّث عنها "دي سوسير": أي قيمة العلامة اللغوية لا تتحدّد من ذاتها بل بالنظر إلى علاقتها بما يخالفها ويُجاروها من علامات لغوية أخرى، فهي تعدّ اللبّات التي تشيّد البناء اللغوي، كما أنّها لا تأخذ قيمة متساوية، بل تتفاوت بين المركزية والهامشية، لذلك علينا أن نشدّد أنّ المعنى الدلالي (Semantic meaning) هو ارتباط المعطيات اللغوية بالمعطيات الخارجية.

<sup>7</sup> ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، (دراسة دلالية مقارنة)، مكتبة المنار، بيروت، ط1، 1985، ص540.

<sup>8</sup> منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1986، ص185.

إنّ النتائج التي توصّل إليها علم الاجتماع والأجناس "مالينوفسكي" (Malinoweski)، قد استفاد منها "فيرث" في تحديد مبادئ نظريته، خصوصاً فيما يتعلّق بالظروف الخارجية التي تحيط باللغة، فقد رأى أنّ معاني الكلمات في النهاية هي نتاج الوظيفة التي تؤدّيها ضمن البيئة التي أنتجتها، وفي إطار سياقات موقفية محدّدة، وإن عزلت عنها تُصبح مهمة المعنى<sup>9</sup>، هذا يعني أنّ المعنى الدلالي: انعكاس للحياة الاجتماعية وكشف عن روح المجتمع وثقافته، وتعبير عن رؤية خاصة للعالم، لأنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، ولعل هذا ما يثبته علم اللّغة الاجتماعي: "أفضل سبيل إلى دراسة المعنى أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر"<sup>10</sup>.

مما يعني أنّ تحديد المعنى الدلالي أصبح ينطلق من الإحاطة بمختلف الأسيقة التي ساهمت في تشكيل كيان اللّغة وبلورة معناها العام المعبر عن روح الأُمَّة وثقافتها، فالعلامات اللّغويّة لا تعرف من المعاني المعجميّة فحسب؛ ذلك أنّها تتبعها ظلال من المعاني تجعلها متعدّدة، إنّما تُعرف قيمتها من المحيط الذي يساهم في تركيبها، "ومعنى هذا بالتّالي أنّنا حين نفرغ من تحليل الوظائف على مستوى الصّوتيات والصرف والنحو ومن تحليل العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها على مستوى المعجم لا نستطيع أن ندعي أنّنا وصلنا إلى فهم المعنى الدلالي لأنّ الوصول إلى هذا المعنى يتطلب فوق ما تقدّم ملاحظة العنصر الاجتماعي الذي هو المقام"<sup>11</sup>.

لذا، يعدّ "السّياق context" أحد أهم مباحث علم الدلالة الحديث، يعتمد عليه في تحديد المعنى الدقيق للعلامات اللّغوية والتراكيب، ذلك أنّ تحليل أي نسيج لغوي يفرض الإحاطة ولو نسبياً بالمرجعيات المعرفيّة الثّقافية خصوصاً وأنّ اللّغة نظام من العلامات اللّغوية المتعارف عليها؛ أي أنّه يُنتج في بيئة ثقافيّة خاصة.

إنّ التّركيز في البداية يكون على الكلمة مادامت تمثّل القاعدة الأساسيّة للتراكيب والأنسجة، لذا الاهتمام منصب أكثر على وظيفتها الدلالية في مصاحبتها لغيرها من الكلمات ورحلتها الانضماميّة إلى الحقل الدلاليّ لتحمّل معنى خاصاً يعبر عن حمولة دلاليّة سياقية، ناتجة عن ارتباط الدّاخل اللّغوي بالخارج الاجتماعي.

على هذا، يتمّ الوصول إلى المعنى الدلالي بواسطة التّحليل اللّغوي للمستويات المختلفة إضافة إلى المعجم، فمن تلك المستويات الصّوتيّة والصّرفيّة والنحويّة يتجلى لنا المعنى الوظيفي الذي يربط بينها، ثمّ

<sup>9</sup> محمد محمد بونس علي، المعنى وظلال المعنى، ص 121.

<sup>10</sup> هديسون، علم اللّغة الاجتماعي، تر: محمود عياد، عالم الكتب، ط 2، 1990، ص 119.

<sup>11</sup> تمام حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص 342.

المعنى المعجمي المعبر عنه بالعلاقات العرفية بين العلامة اللغوية ومعناها، ثم نصل إلى المعنى الدلالي حينما نخرج إلى العالم واجتماعية الكلمة.

الحقول الدلالية تقوم على جملة من العلاقات سواء فيما بينها أو بين الكلمات داخلها، من شأن ذلك أن يساهم في تركيب البنية الثقافية والكشف عن التصور الاجتماعي، فتلك المجالات والحقول الدلالية الرئيسية منها والفرعية تشكل في مجملها معجماً يعبر عن رؤية خاصة للعالم. ومنه تكون الدراسة قد تجاوزت النظر إلى الكلمة في ذاتها إلى النظر في اجتماعيتها.

لذلك لا تتضح البنية الدلالية بمجرد تحليل بسيط للبنية الشكلية للكلمة بدراسة أصلها أو تاريخها، بل بالبحث عن سياقها الداخلي، وعن سبل فهم البنية الثقافية ورؤية العالم من جهة أعمق.

لعل إسقاط هذه المفاهيم على "السياق القرآني" يؤدي بنا إلى القول كما قال الباحث "عبد الغني بارة": "فليس غريباً والأمر على ما أقررنا، أن ينطلق فهم النص القرآني من القرآن نفسه، انطلاقاً من فكرة أنه نص يفسر بعضه بعضاً، وهو ما يجعل مجموع العناصر غير اللغوية كالتاريخ، أسباب النزول تسقط لصالح النص نفسه."<sup>12</sup> هذا يعني أن "النص القرآني لا تفسر الجملة منه، أو اللفظة منفردة، وإنما يفسرها ما حولها من ألفاظ وجمل وآيات قد تمتد إلى النص القرآني كله، وهو ما نسميه بالسياق اللغوي، وقد يفسرها ما هو خارج النص من مثل السنة المطهرة وأسباب النزول وكل ما يعرف به ظروف الخطاب القرآني من متكلم ومخاطب ومكان وزمان وعموم وخصوص."<sup>13</sup> في ذات الموضوع يقول "فاضل صالح السامرائي": "وقد ذكرنا في كثير من مناسبة أنه لا يصح اقتطاع جزء من الآية أو اقتطاع آية من سياقها للتدليل على الرأي وإنما ينبغي أن يوضع كل تعبير في سياقه ليتبين الفرق بين استعمال وآخر"<sup>14</sup>.

#### خاتمة:

لقد ساهم دور السياق في تحدد الدلالة، في إخراج الدرس الدلالي من حيز التنظير إلى حيز التطبيق، حيث تعد هذه النظرية أكثر النظريات منهجية وارتباطاً بعلم الدلالة، كونها تركز على الإجراء العلمي الموضوعي في وصف واستنباط المعنى الدلالي، على نحو ما يظهره التزاوج بين الوجود الداخلي اللغوي

<sup>12</sup> الأساس اللغوي في فهم القرآن لدى علماء الأصول، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، 2015، ص 194.

<sup>13</sup> محمد أحمد خضير، التركيب والدلالة والسياق دراسة تطبيقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2005، ص 114.

<sup>14</sup> أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان، ط 1، 2009، ص 40.

والوجود الخارجي الثقافي. إنّ هذه النظرية توضّح بدقة كيف تتعامل اللّغة مع الثقافة وكيف تعبّر بأسلوبها الخاص عن العالم.